التراث الأثري بين أسس البحث العلمي وسبل الحفاظ عليه

أ.التجاني مياطة

جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي -

إن فكرة انتقال شئ ما عبر الزمن هو المعنى الأصلي لمعنى التراث، أي أن لفظة التراث لغة تحمل لغتنا ولغة غيرنا معنى التوارث والنقل وهو الشئ الموروث أي ما نقله الخلف من السلف.

والموروث هو كل ما هو منقول ومتوارث متواتر واكتسب الفظ بعد ذلك معناه الاصطلاحي على الاستعارة والتشبيه حتى أصبح يطلق في الغالب على كل عناصر الثقافة التي تتناقل من جيل إلى آخر[1].

والتراث رغم وضوح معناه لغة واصطلاحا فإن الباحث لا يكاد يجد له تعريفا واحدا فقط فاختلف أهل العلم في تعريفه وتنازعوه بحسب علومه ومناهجهم، وأضحى للتراث تعريفات كثيرة تتعدد بتعدد المجالات التي تستعمل فيه. فيقال التراث الثقافي والتراث المعماري والتراث الشعبي، التراث العربي، التراث الإسلامي، ويقال التراث الحضاري أو الموارد الحضارية أو الممتلكات الثقافية الحضارية. وفي ضوء مفهوم آخر مكمل له طالما أغفل وهو ضرورة الحفاظ على التراث الثقافي وإحياؤه ، إذن مفهوم التراث مقترن بمفهوم الحفاظ عليه وإعادة تثمينه وهدف الكشف عن حمايته والاستفادة من قوته الكامنة التي تبرز من خلال تحقيق الذات وذلك بتواصل الإبداع فيه وتحمل مسؤولية نقله للأجيال القادمة[1].

1_ **<u>تعريف التراث:</u>** هو شكل ثقافي متميز يعكس الخصائص البشرية عميقة الجذور، ويتناقل من جيل إلى آخر ويصمد عبر فترة زمنية متفاوتة نوعيا ومتميزة بيئيا[2]، تظهر عليه التغيرات الثقافية الداخلية والعادية ولكنه يحتفظ دائما بوحدة أساسية مستمرة ولكي نمسك بشكل أفضل بمفهوم التراث هذا ينبغي أن ننتقل من التعميم إلى التخصيص ولنتخذ من مفهوم التراث ومركباته في الإطار الثقافي والعربي مثالا بارزا على ذلك[3] فقد قسم التراث الثقافي إلى ثلاثة أقسام:

1_1_ <u>التراث المادي:</u> ويعرف بالمباني الأثرية وما تكشفه الحفريات، وبما تحتويه المتاحف بمعنى التراث المادي منه الثابت كالمدن الأثرية والمواقع التاريخية والعمائر الدينية والحصون العسكرية والمنشآت المائية والزراعية والمدافن والمنقول يتمثل في كل من المقتنيات المنحوتة والمخطوطات والمسكوكات والأدوات الفخارية والزجاجية والمنسوجات[4].

---

[1] - يوسف محمد عبد الله، الحفاظ على الموروث الثقافي الحضاري وسبل تنميته، جامعة صنعاء، دون سنة نشر، ص 01.

[2] - نفسه، ص 02.

[3] - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، تونس، 1985، ص 23.

[4] - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، توصيات حلقة العمارة العربية، الحمامات، ديسمبر 1977، ص 45.

1_2_ التراث اللامادي: وينقسم إلى ما يلي :

أ_ التراث الفكري: وهو ما قدمه السابقون من علماء وكتاب ومفكرين كانوا شهودا على عصورهم مبدعين من خلالها ويشمل ثلاثة أصناف وهي:

- ما ورثه السلف من العلوم والمعارف الدينية .
- العلوم والمعارف الطبيعية كعلوم الأوائل والتراث العلمي الإسلامي في كافة مجالات العلوم.
- الفنون الأدبية والزخرفية والخطية ...

ب_ التراث الاجتماعي: قوامه قواعد السلوك والعادات والتقاليد الخاصة بمجتمع معين[5]، ويشمل ما يلي:

- الموروث الشفوي كالحكايات والأمثال الشعبية واللهجات ...
- العادات والتقاليد المتعلقة بالمناسبات الدينية والوطنية كاللباس والطبخ
- الفنون الشعبية كالغناء والرقص والموسيقى والأهازيج...

ومن هنا نجد أن تنوع التراث يعطي له تعددا وتنوعا في المفاهيم بحيث نستطيع القول أن[6]:

- التراث هو شغل ثقافي يعكس الخصائص البشرية وظاهرة أساسية لوجود الإنسان دون إهمال مصطلح الثقافة في هذا السياق
- أن التراث إنجاز اجتماعي ينتسب إلى الماضي في صورة مختلفة سواء أكان ذلك علميا أم فنيا، وينضوي ذلك في جميع أشكال التعبير الثقافي المادي وللامادي.

ورغم ترادف مفهوم الثقافة والتراث الثقافي إلا أنه يمكن للمرء أن يتبين فيها عناصر التراث مميزة عن العناصر الأخرى التي تضمنت مفهوم الثقافة[7].

2_ **مفهوم الحفاظ على التراث الثقافي:** يتمثل الحفاظ في مجال التراث الحضاري دلالتين متكاملتين، فالدلالة الأولى يقصد بالحفاظ معنى الحماية والمحافظة على الآثار والمعالم والمواقع التاريخية والإبقاء على الشواهد التراثية كما وصلتنا دون تعديل أو تغيير يمس جوهرها والحيلولة دون سرقتها ونهبها وتخريبها وذلك لأنها لا تتزايد وإنما تتناقص بإستمرار نتيجة الإتلاف والنهب وحركة التنمية الحديثة[8]، ومعنى الحفاظ في الدلالة الثانية هو إحياء ذلك التراث باعتباره خلفية للمكون الثقافي عن طريق الكشف عنه وصيانته وترميمه وفق الأساليب العلمية وجمعه وإبرازه والتعريف به ودراسته ، وفي مقدمة ذلك

5 - يوسف محمد عبد الله، مرجع سابق، 10.

6 - نفسه،ص 11.

7 - توصيات المؤتمر الخامس عشر لوزراء خارجية الدول الإسلامية، صنعاء، ديسمبر 1984.

8 - محمد عبد الهادي، دراسات علمية في ترميم وصيانة الآثار غير العضوية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1997، ص 65.

حصره وتسجيله ليصبح الثر معروفا ومفصلا وعميق المفهوم بل في بعض الحالات لابد من إعادة توظيفه توظيفا نافعا وتشجيع إعادة الجيد منه[9].

إن أهمية التراث الثقافي لا تتحقق إلا بدخول في العصرنة الحديثة والمشاركة في مسيرة ركبه لأن الأصالة لا تتحقق فعلا إلا من خلال الحداثة وكل ما استوعب المرء معطيات العصر في هذا العالم بقدر ما ندرك أننا نعيش في مجتمعات تحتاج للأخذ بأسباب العلمية والتقنية كشكل معاصر لتراث المستقبل بحيث نسعى للحفاظ على الهوية والذاتية الثقافية في خضم عالم صاخب تطغى فيه أنماط الثقافات التي أتيحت لها كل أسباب التفوق والانتشار والظهور.

3_ **<u>آليات وسبل الحفاظ علة التراث الثقافي:</u>** إن الحديث عن الحفاظ يعني تناول السياسات والتشريعات والبرامج التي ينبغي أن تضطلع بها الأجهزة المختصة والمؤسسات الثقافية والعلمية الحكومية أو الدولية.

3_1_ <u>تقدير أهمية التراث وتحديد عملية الحفاظ:</u>

تعتبر هذه المهمة صعبة في أدائها لان الأمر يحتاج إلى أهل الاختصاص وذوو ذوق وخبرة في مجالات عديدة كالإلمام بتاريخ الفن وتاريخ العمارة وعلم الآثار وعلوم الهندسة وتخطيط المدن وغيرها من العلوم.

ولإعطاء التقدير الجيد لأهمية التراث لابد من وضع معايير أساسية[10] هي كالتالي:

- معيار القيمة الجمالية: الذي يتمثل في الذوق السليم وانطباع مهم يستند إلى خلفية ثقافية واسعة.
- معيار القيمة التاريخية: والتي تتمثل في المعرفة العميقة بمقدار ما يعبر عنه المعلم التاريخي لنشاط إنساني معين.
- معيار القيمة العلمية: وتتحقق في الغالب من خلال ما يمكن تقديمه من معارف نادرة تدل على تطورات تقنية وفنية تفيد الباحثين في هذا المجال.
- معيار القيمة الاجتماعية: تتجلى من جميع الخصائص التي تضفي على الأثر أهمية اجتماعية معينة كالأهمية الدينية حيث يصبح المعلم مزارا لكثير من الناس أو الأهمية الوطنية كرمز أو عبرة للماضي[11].

3_2_ <u>سبل الحفاظ على التراث الثقافي:</u> يعتبر مصطلح الحفاظ مصطلحا عاما لا يفهم إلا بتحديد نوع عملية الحفاظ التي ينبغي أن تقترن به وان يحدد المصطلح لكل حالة من الحالات وابرز عمليات الحفاظ ما يلي[12]:

---

[9] - أحمد ابراهيم عطية، حماية وصيانة التراث الأثري، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص 43.

[10] - يوسف محمد عبد الله، مرجع سابق، ص 11.

[11] - نفسه.

[12] - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مرجع سابق، ص56.

أ- الحفاظ: وهو مصطلح عام يشمل جميع النواحي المتعلقة بحماية المعالم التاريخية والمواقع الأثرية، وتشمل مهمة الحفاظ عملية الصيانة تبعا لأهمية الأثر والظروف المرتبطة به وهكذا نجد أن مصطلح الحفاظ في مدلوله أهم واشمل وأقدم استخداما من كل العمليات الأخرى[13] ، وللحفظ مفهومان هما:

لغة: الحفاظ، المحافظة على العهد والمحاماة على الحرب ومنعها من العدو، والمحافظة تعني المواظبة على الأمر[14].

اصطلاحا: كلمة الحفظ تعني باللغة الانجليزية conservation المشتقة من الكلمة اللاتينية conservatio والتي تعني الصيانة والحفظ والعلاج، وقد ظهرت هذه الأعمال الترميمية الخاطئة التي كان يقوم بها المرممون في الماضي دون أسس علمية تحفظ للأثر طابعه الأصلي وقيمته الفنية والأثرية، وقد أطلق على هاته الأعمال مصطلح الترميم restauration[15].

وخلال القرنين 18 و 19 سادت الحياة الثقافية في أوروبا وجهة نظر تنادي بالمحافظة على التراث، وأن تكون أعمال الترميم موجهة لعلاج الأثر من التلف، دون أن يفقد شيء من قيمته الأثرية[16].

ظهرت خلال القرن 19، كلمة conservatory التي كانت تطلق على البيت أو الحديقة التي تضم النباتات النادرة التي تتطلب المحافظة عليها من الانقراض، وهي تقترب من كلمة conservation، كما نجد كلمة أخرى بالفرنسية ظهرت لأول مرة سنة 1879 م conservatoire أطلقت على معهد الموسيقى الذي يهتم بالمحافظة على التراث الموسيقي الأوروبي[17].

ومع بداية القرن 19 أخذ مصطلحة صيانة الآثار antiquité conservation يطلق على الأعمال والدراسات التي يقوم بها المختصون في صيانة الآثار وعلاجها من جميع مظاهر التلف وصيانتها وفق أسس علمية من خلال تحديد خصائصها الفزيوكيميائية[18].

ومع ذلك فإن مصطلح restauration مازال مستخدما جنبا إلى جنب مع مصطلح conservation بالرغم من اختلاف هذين المفهومين عند الفرنسيين والانجليز.

ب-الصيانة: من المعروف أن المادة الأثرية تحمل قيما فنية وجمالية، والهدف من الصيانة هو الكشف عن هذه القيم وكذلك حمايتها طبقا لما اقره القانون وأوصت به المواثيق الدولية إن مجال صيانة وترميم الآثار يعتمد فقط على المهارة اليدوية والخبرة الفنية فحسب لكنه يعتمد أيضا على شتى العلوم والتكنولوجيا

---

13 - يوسف محمد عبد الله، مرجع سابق، ص 12.

14 - محمد فهمي عبد الوهاب، دراسات نظرية وعلمية في حقل الفنون الأثرية وطرق ومواد الترميم الحديثة، القاهرة 1985، ص76.

15 - ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، م 7، ط1، دار صادر، بيروت، ص 441.

16 - فايزة إبراهيمي، وسط الحفظ بمتحف تلمسان، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، جامعة تلمسان، 2006 – 2007 ص 06.

17 - عائشة فاطمي، وسط الحفظ بمتحف أحمد زبانة، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2008 ص 23.

18 - محمد عبد الهادي، مرجع سابق، ص 27.

التي تساعدنا على صيانة الأثر وترميمه، ولهذا يمكن القوا أن كل أعمال الترميم المختلفة وصيانة الآثار هي عمليات علمية وتنفيذية[19]، وتعرف الصيانة كما يلي:

– لغة: تعني صان، يصون، صونا وصيانة، صائن، مصون: أن نقى شيئا أو ثوبا، وصان الشيء صونا وصيانة، الشيء: حفظه في مكان آمن (صانت جواهرها في المصرف).

عرضه أو نحوه: (حماه ووقاه) يصونون بلادهم من الأخطار.

صائن: حافظ لماله، صائن عرضه، حام متعهد.

صوانُ: جمع أصونه، خزانة من الخشب أو المعدن أو غيرها تصان فيها الملابس أو الكتب ...إلخ.

أما تعريفها حسب القاموس فهي عملية الحفظ وإبقاء التحف واللقى على نفس الحالة التي كانت عليها أو وجدت فيها[20].

اصطلاحا: الصيانة هي مجموعة الاحتياطات المتخذة من أجل الإطالة في حياة المواد الأثرية أو التحف الفنية، مع تفادي تلفها الطبيعي أو الناجم عن الاصطدام العفوي، وتنقسم الصيانة إلى نوعين: علاجية تعمل على إصلاح التلف المسجل أو الظاهر، وأخرى وقائية تعمل على تفادي أسباب التلف[21].

والصيانة بالتحديد هي خلق وسط حفظ حيوي ملائم. والعمل على استقراره، والتقليل من التلف والتآكل الذي تتعرض له المقتنيات والتحف والوثائق المعروضة أو المخزونة مع مراقبة حالة حفظها باستمرار[22].

ج- الترميم: وهو عملية إعادة بناء الموقع على حالته السابقة دون إضافات وإعادة تجميع العناصر القائمة وعدم إدخال مواد جديدة.

د- التكييف: وهو عملية تعديل ليتلاءم الأثر لاستخدام مغاير دون الاستخدام الأصلي وشرط التكييف أن لا ينتقص الأثر لدرجة كبيرة من أهميته وان يكون _ التكييف _ ضروري لإبقاء الموقع في حالة اقتصادية تمكنه من الاستمرار [23].

إن الحفاظ على التراث الثقافي ليس مهمة الأجهزة المعنية في الدولة فقط، وإنما يقع على عاتق المجتمع في مجمله حتى يعي بأهميته والحفاظ عليه، ولا ينحصر إتلاف المواد التراثية بشتى أنواعها إلا إذا انتشر الوعي بين الناس والتعاون بحماس وروح مسؤولية مع الجهات المختصة فيما تقوم به من برامج ومشاريع تهدف إلى الحفاظ كما ينبغي أن تكثف الجهود التعليمية والتربوية في مجال نشر الوعي التراثي والتواصل

[19] - توفيق سيد ، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، جامعة القاهرة، 1983، ص 87.

[20] - petit larousse; lustres 1991, lebrairie larousse , 1990, p 651.

[21] - Odile . MB et . toblemej . M, manuel de muséolographie, société allantique dinpression, 1998, p 109.

[22] - Gob A et Brouguet N, la muséologie, histoire développements et enjeux actuel Armoud Colud 2004, p – p 11 – 12.

[23] - محمد عبد الهادي، مرجع سابق، ص 27.

بانتظام[24] وما تبعه حتى نصل إلى إحداث التغيير المطلوب لدى الرأي العام. إن مفهوم التراث مهما توسعنا في الحديث عنه لا يكتمل دون مفهوم الحفاظ فقيمة التراث الأساسية تكمن في انه يمثل موروث الأمة وحكمتها وحسها الجماعي وعامل وحدتها الأساسي الذي ورثته من الماضي و به تستعين على تشكيل وعيها للحاضر ونظرتها للمستقبل.

---

[24] - يوسف محمد عبد الله، مرجع سابق، ص 11.